الفصل الثالث

البناء الفكري للمجتمع والأمة

مقدمة

أولاً: الهُوية الفكرية

ثانياً: البناء الفكري بين الجمود والتجدُّد

ثالثاً: تسويق الأفكار

رابعاً: حاجة الأمة إلى القيادة العلمية والفكرية

خاتمة

obeikan.com

obeikan.com

البناء الفكري للمجتمع والأمة

مقدمة:

الأمة في المصطلح القرآني هي الجماعة أو الطريقة أو الدين، ولكن اللفظ في اللغة العربية الشائعة اليوم -وما يقابل هذا اللفظ باللغات الأخرى- أصبح ذا دلالات مختلفة، فتعنى مجموع الناس في مجتمع محدد، أو دولة محددة، فيقال الأمة المصرية، ويقال الأمة الأمريكية؛ وتعني مجموع الناس في دين واحد، فيقال الأمة الإسلامية، والأمة اليهودية، وهكذا. أما المجتمع فهو مجموعة من الناس يعيشون في محيط جغرافي محدد، ويجمعهم نظام مشترك يلتزمون به، يدير شؤونهم ويحدد علاقاتهم ببعضهم وعلاقاتهم بالمجتمعات الأخرى، وقد يكون بين أفراد المجتمع انسجام عام في واحد أو أكثر من العوامل المؤسسة للمجتمع مثل الدين أو اللغة أو القومية. وقد يكون بين المجتمعات من هذه العوامل ما يجمع جميع أو معظم من يعيش في هذه المجتمعات في دائرة أكبر. فيكون الحديث عن شعب يعيش في عدد من المجتمعات، وقد يطلق على الشعب وصف الأمة بمعيار محدد عرقي أو لغوي أو ديني. فيكون الحديث عن الأمة العربية التي يجمعها العِرق واللغة، وتجتمع في تكوينها فئات من أهل الأديان المختلفة، وتعيش في مجتمعات متعددة، أو يكون الحديث عن الأمة الإسلامية التي يجمعها الدين، وتجتمع في تكوينها فئات من أهل اللغات والأعراق المختلفة وتوجد في مجتمعات ودول وقارات مختلفة.

ونلاحظ أن بعض العوامل وراثية لا تسمح للإنسان أن يخرج من دائرة الانتماء الإرادي إلى مجتمع أو أمة، مثل مكان الولادة أو اللغة أو القبيلة أو العرق، وبعض هذه العوامل يختارها الإنسان اختياراً إرادياً حراً مثل الدين، والفكر.

obeikan.com

والهوية الفكرية يصح أن تكون وصفاً تتصف به أية جماعة صغيرة أو كبيرة، ويحدد هذا الوصف مجموع الأفكار التي يتبناها أفراد هذه الجماعة، وطرق التفكير التي يستعملونها، ومن ثم البنية الفكرية التي تتضمن منظومة المعتقدات والقيم وأنماط السلوك. وتتشكل هذه البنية من مصادر مختلفة، تعود إلى الموروث التاريخي، أو أساليب التنشئة التربوية والاجتماعية، أو التثقيف القسري للنظام السياسي، أو غير ذلك من الآثار.

نحاول في هذا الفصل الوقوف على بعض هذه العوامل التي تشكل الهوية الفكرية للفرد والمجتمع، ودور الفرد والنخبة في إبداع الفكر ودور البيئة المؤسسية في احتضان الفكر ورعايته وتسويقه، وفي بناء رأس المال الفكري للمجتمع والأمة، وموقع الأمة المسلمة في الريادة الفكرية.

أولاً: الهوية الفكرية

كما أنَّ الله سبحانه خلق كلَّ فرد إنساني بصورة تميِّزُه عن الفرد الآخر، رغم وجود كثير من الصفات المشتركة بين الأفراد، كذلك جعل الله الناس قبائل وشعوباً، تختلف فيما بينها في اللغة، واللون، والدين، والتقاليد. والمجتمعات البشرية الحالية تتمثل في كيانات سياسية تسمى (دولاً): لها حدودها الجغرافية والسياسية، ولها خصائصها ومقوماتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية، ولها ثقافاتها وعاداتها في المأكل والملبس والمشرب.

وقد يتميز في المجتمع الكبير للدولة مجتمعات فرعية، تتميز على أساس البيئة الحضارية، بادية وحضر، أو الطبقة الاقتصادية، أغنياء وفقراء، أو فئات عمل ومهن، ونقابات مهنية، إلخ.

وتحرص المجتمعات عادة على المحافظة على هويتها الفكرية والثقافية من خلال عدد من الأساليب والوسائل والإجراءات، منها:

١- برامج التربية والتنشئة الأسرية التي يتعلم فيه الفرد اللغة الأم، وكثيراً

من القيم والأعراف الاجتماعية.

٢- برامج التعليم العام التي يتعلم فيها الفرد أساسيات العلم والمعرفة عن تاريخ بلده، وجغرافيته، وأنظمته، والحقوق والواجبات التي يجب أن تقوم بين أفراد المجتمع وفئاته.

٣- مؤسسات المجتمع الرسمية أو الأهلية، التي يكون لها اهتمامات خاصة في مجال ثقافي أو سياسي أو اجتماعي، ولكنها مع ذلك تسهم في بناء الهوية الوطنية لأبناء المجتمع، بما فيها من عناصر فكرية وثقافية. ومن هذه المؤسسات على سبيل المثال: الأحزاب السياسية، والجمعيات والنقابات المهنية، والمنظمات الشبابية والرياضية، والمكتبات العامة، وغيرها.

٤- التشريعات والقوانين التي على الفرد أن يلتزم بها، بصورة تحقق تماسك المجتمع، وتحافظ على مصالحه، والعقوبات التي يمكن أن يتعرض لها الفرد إذا خالف هذه الأنظمة والقوانين.

مثل هذه الأساليب والوسائل تشترك في صياغة عقول الأفراد في المجتمع ونفسياتهم، وأنماط السلوك لديهم، بصورة تستطيع أن تميز هوية الفرد وانتماءه إلى مجتمعه. فالبناء الفكري لمجتمع ما يتحدد بمجموع الأفكار والمشاعر وأنماط السلوك المشتركة بين أفراد ذلك المجتمع، وتكون مختلفة عنها في مجتمع آخر، وبذلك يكون للمجتمع الآخر بناء فكري آخر.

وفي مجال الحديث عن البناء الفكري للأمة يلزمنا أن نلاحظ أنّ مفهوم الأمة لم يَعدْ مفهوماً منضبطاً في أصوله ودلالاته اللغوية أو الدينية، فالمجتمع من الناس داخل الدولة يمكن أن يسمّي نفسه أمَّة، ويحاول أن يعيد بناء تراثه وأصوله التاريخية من أجل أن يسوغ به هذه التسمية. وقد بدأت هذه الظاهرة تغزو المجتمعات البشرية بعد سلسلة من المخاضات العسيرة التي مرت بها

أوروبا، وبناء الدولة الوطنية ضمن حدود سياسية لم تكن معروفة في السابق في عهد الإمبراطوريات، ونظم الحكم الدينية. ثم انتقلت هذه الظاهرة إلى القارات الأخرى بعد تقسيم تركة الاستعمار إلى دول، أو دويلات، لكلٍّ منها حدود سياسية، وعَلَمٌ ذو ألوان، ونشيدٌ وطني، ونظامُ حكم. ولا شك في أن رسم هذه الحدود سواءً في أوروبا أو آسيا أو إفريقيا لم يكن على أساس التمايز والنقاء العرقي أو اللغوي أو الديني، ومع ذلك فقد أصبح كل مجتمع أمة قائمة بذاتها (nation).

لكنَّ مفهوم الأمة في الإسلام مفهوم ديني متعدد الجوانب، يمكن أن يتحدد في شخص واحد يقوم مقام أمة في حملها للرسالة الدينية: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠]، أو جماعة من الناس تقوم بمهمة دينية محددة: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، أو أتباع محمد ﷺ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، أو مجموع أتباع الأنبياء الذين جاءوا برسالة التوحيد: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢] أو المجموع البشري بكل تنوعاته: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود: ١١٨].

وعندما نتحدث عن الأمة الإسلامية، في دلالاتها المحددة في القرآن الكريم والحديث النبوي والتراث الإسلامي، التي عرفت في تاريخها معاني الوحدة، والتماسك، والتكافل والتناصر، ثم عرفت في واقعها المعاصر التمزق إلى دول ومجتمعات، وإلى طوائف ومذاهب، وإلى أعراق ولغات...، فإنَّ علينا أن نتخيل معنى البناء الفكري للأمة في كلتا الحالتين.

فالأمَّة الإسلامية الواحدة، كما يريدُها دينُها الواحد؛ تتوحَّد في عقيدتها، وعباداتها، وتتوحد في شعائرها ومشاعرها، وفي أحكامها وأنظمتها الشرعية، وتتوحد في آمالها وآلامها، "كالجسد الواحد"، ومن ثمّ فلا شك في أنّها تملك

obeikan.com

أساليب تحقيق التجانس في البناء الفكري في المجتمع

obeikan.com

من وحدة البناء الفكري ما يميز أي مجتمع من مجتمعاتها، وأي فرد من أفرادها بهويته وانتمائه إلى هذه الأمة. لكنَّ الأمة الممزقة إلى مجتمعات ودول، مختلفةٍ في ولاءاتها، متخاصمةٍ على حدودها، متنافسةٍ على مصالحها، لم تنجح في أن يجمعها جامع، ويجتهد كل جزء منها في التميز على الأجزاء الأخرى ولو في مجال "التطاول في البنيان"!(١)

وبقدر ما تشترك مجتمعات الأمة في أساليب التنشئة، وبرامج التعليم، وإقامة المؤسسات العامة والخاصة، وأنظمة الحياة، بقدر ما يتوحد بناؤها الفكري.

ثانياً: البناء الفكري بين الجمود والتجدُّد

تتميّز بعض الحركات بأنها تبني مدارس فكرية تستمر بعد وفاة مؤسسها، وتضرب جذورها عميقاً في واقع الفكر وواقع المجتمع، ثم تستقر المدرسة الفكرية فترة طويلة دون تجدّد يُذكر. وعلى ما في هذه الأفكار الأولى التي تكونت على أساسها المدرسة الفكرية، وعلى ما اتصفت به القيادة التي كوَّنَتْها من عبقرية في البناء، فإنّ الجمود على تلك الأفكار الأولى قد لا يكون صفة إيجابية.

إن ذلك لا يعني إنكار فضل المؤسس، والتهاون في الاعتراف بعبقريته في صياغة أفكار الحركة، بحيث ترتبط بهوية المجتمع وانتمائه الفكري ارتباطاً وثيقاً، أو لعبقريته في صياغة تنظيم الحركة في صورة أفكار صالحة للتبنّي وقابلة للبقاء. يقول سيد قطب عن حسن البنا مؤسس حركة الإخوان المسلمين:

"حسن البَنَّا.. إنها مجرد مصادفة أن يكون هذا لقبه ..ولكن من يقول: إنها مصادفة، والحقيقة الكبرى لهذا الرجل هي البِنَاء، وإحسان البِنَاء، بل عبقرية البِنَاء؟ لقد عرفت العقيدة الإسلامية كثيرا من الدعاة.. ولكن الدعاية غير البِنَاء..

(١) البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل للنبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، وفيه سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ: "...قال متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربَّتَها، وإذا تطاول رعاء الإبل البُهم في البنيان..."، حديث رقم ٥٠، ص ٢٣.

obeikan.com

وما كل داعية يملك أن يكون بناء، وما كل بناء يوهب هذه العبقرية الضخمة في البِنَاء. هذا البِنَاء الضخم.. الإخوان المسلمون.. إنه مظهر هذه العبقرية الضخمة في بناء الجماعات..إنهم ليسوا مجرد مجموعة من الناس، استجاش الداعية وجداناتهم، فالتفوا حول عقيدة.. إن عبقرية البَنّاء تبدو في كل خطوة من خطوات التنظيم.. إنها عبقرية البِنَاء، تمتد بعد ذهاب البَنَّاء!"[1]

لا شك في أن تطوراً مهماً حصل في دوائر المدرسة الفكرية التي أسسها حسن البنا وتكونت على أساسها جماعة الإخوان المسلمين منذ أكثر من ثمانين عاماً، وهي تشهد اليوم حضوراً كبيراً في الساحة الإعلامية والسياسية، المحلية والإقليمية والدولية، وتخرج أفكارها من حالة إلى حالة، وتصبح موضوعاً للحوار والجدل، بين المؤيدين والمعارضين، وسوف يتطلب كل ذلك جهوداً فكرية جديدة، ربما يرافقها إعادة صياغة وتكييف ليس لمواجهة التحديات التي ربما واجهت مثلها من قبل وحسب، وإنما للتأكيد على حركية الفكر الإسلامي الذي تتبنّاه، وعلى ضبط التوازن بين الثوابت والمتغيرات في هذا الفكر، وأخيراً لبقائها مدرسة فكرية متجذرة، وليس حزباً تطيح به الأحداث إلى غير رجعة.

إن حضور الفكر الإسلامي في التاريخ كشف عن صعوبة حصر هذا الفكر في مدرسة فكرية واحدة، تنشأ ضمن محددات الزمان والمكان. فانتساب هذا الفكر إلى الإسلام لا يسوغ لبعض المتحدثين عن الإسلام الاكتفاء بالتأكيد على أن الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان، ومن ثَمَّ فعلى المسلمين أن يتمسكوا بدينهم، فهم ليسوا بحاجة إلى شيء آخر غيره أو معه، حتى يطيب عيشُهم وتُحلَّ مشكلاتهم. وإذا كان ذلك تعبيراً عن حقيقة اعتقادية لا مجال للتردد في الانطلاق منها، فهل ذلك يعنى أنَّ الطريقة التي يفهم بها المسلمون دينهم، ويصوغون أفكاره، ويطبقون أحكامه، في البلدان المختلفة، والأزمان المتتالية، هي صورة واحدة تتصف بالثبات والاستقرار، وتخلو من الاختلاف والتنوع والتجدد؟

---

(١) قطب، سيد. **دراسات إسلامية**، القاهرة: دار الشروق، ط١١، ٢٠٠٦م، ص ٢٢٥-٢٣٠.

إنّ التغيّر حقيقة من حقائق الكون، فساعة الزمن في هذه الحياة الدنيا، لا تتوقف عقاربها. ويكفي أن يكون مرور الوقت عاملاً أساسياً في التغيُّر الذي يصيب الأشخاص ويؤثر في رؤيتهم للأشياء والأفكار. وبمرور الوقت ينمو الإنسان ويمر بخبرات جديدة، فيزداد في العلم، ويتطور في الخبرة والتجربة، وهو في ذلك يتذكر أموراً وينسى أخرى. لذلك لا نتخيل معنىً للجمود في فكر الإنسان على وجه الحقيقة. ومع ذلك يكثر الحديث عن الحاجة إلى التجدد والتجديد، وضرورة التوقف عن الجمود، ويتجدد الحديث عن الانفتاح والانغلاق في كل مناسبة للحديث عن الفكر الإسلامي، فماذا يعنى ذلك؟

يدعو الفرد المسلم ربّه: ربِّ زدني علماً، ويردِّدُ: لا بارك الله لي في يوم طلعت عليّ شمسه ولم أزدد فيه علماً. والزيادة في العلم فضيلة وما زال العالم عالماً ما طلب العلم، فإن ظن أنه علم فقد جهل، ويكفي الجهل منقصة أن يتبرأ منه من هو واقع فيه، ويكفي العلم فضلاً أن يدعيه من لا نصيب له فيه.

وفي التاريخ الإسلامي تطورت العلوم ونمت معارف العلماء، ولم يشعر المجتمع الإسلامي في أيّة فترة من فترات التاريخ أنَّ الحاجة إلى تفسير جديد للقرآن الكريم قد انتهت، بل استمر العلماء يكتبون في التفسير، ويكتبون في الفقه، ويكتبون في العقائد، ويُعملون العقل في روايات الحديث النبوي، فيصحِّحون ويضعِّفون. ولم يثبت أن باب الاجتهاد قد أغلق، وإن ادُّعي ذلك.

والتجديد حقيقةٌ من حقائق العلم في الإسلام، والله سبحانه يبعث في هذه الأمة في كل عصر من يجدد لها دينها، ويكفي مفهوم التجديد فخراً أن كل التيارات الفكرية تدَّعيه وتبرز إسهامها فيه. والتجديد واحدٌ من المفاهيم الكلية في النظام الفكري الإسلامي، وهدف منشود من أهدافه، ومطلب عزيز لضمان بقاء المجتمع قائماً وحاضراً في ساحة الفكر البشري.

وللتجديد تمثّلات متعددة، فمنه اجتهاد جديد في فهم نص، أو تنزيل النص على الواقع؛ ومنه انتقال بالفكر الإسلامي من معالجة المسائل الجزئية

في حياة الأفراد والمجتمعات إلى الانشغال بالقضايا الكلية والمسائل العامة للأمة والبشرية؛ ومنه توظيف الوسائل والأدوات التي تستجد في واقع المجتمع الإنساني في تعميم المعرفة بالدين، والتبشير به والدفاع عنه، ومنه تطوير المفاهيم وتنظيم الأفكار ضمن ضوابط منهجية تحدُّ من الفوضى الفكرية، وتوفر إطاراً مرجعياً للحركة الحرة داخل هذا الإطار، دون انفلات من ثوابت الدين ومقاصده في تحقيق مصالح الأمة. وهكذا.

ونحن نفهم حديث غربة الدين[١] على وجه من التجديد، فبدأ الإسلام غريباً غير معروف، وغير مألوف لمن شهد غربته الأولى، لذلك كان أكثر الناس يجحدون الدين ويستنكرون ما يدعو إليه، حتى لو استيقَنَتْهُ أنفسُهم. والحديث يوحي بأنَّه ستأتي على الناس أزمنة يعود فيها الإسلام غريباً كما بدأ، الأمر الذي يتطلب تجديد الدعوة إليه والتبشير به، وأحياء ما اندثر من علومه. ولعل ما قام به أبو حامد الغزالي من "إحياء علوم الدين" كان من هذا الباب، ولذلك كان اختياره عنوان كتابه على هذه الصورة.

فالجمود يمكن أن يصيب الصورة العامة التي يكونها جمهور الناس عن الدين، أو العلم، أو الفكر، ويصيب العلماء في مرحلة زمنية معينة، ويصيب فئة من الناس دون أخرى، ويصيب فرداً دون آخر. وكذلك التجدد يمكن أن يقع لصورة الدين أو العلم أو الفكر عند الناس، كما يقع لطبقة العلماء، أو فئة منهم دون أخرى، أو لفرد من الناس دون آخرين.

وإذا كان الجمود هو التمسك بصور من الفهم لم تعد تكفي لبيان صلة

---

(١) مسلم، مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**. عناية أبو صهيب الكرمي، الرياض: دار الأفكار الدولية، ١٩٩٨م، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً.. رقم الحديث ١٤٥، ص ٨٣. "إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء، وجاء في إحدى روايات الإمام أحمد بن حنبل، في **مسنده**، دار الأفكار الدولية، ١٩٩٨م، من حديث عبد الرحمن بن سنة في مسند المدنين، رقم (١٦٨١٠) ص ١١٩٥: "قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يُصلحون إذا فسد الناس."

obeikan.com

الفكر بالحياة، وإصلاح الواقع المعيش، ومن ثمّ يفقد الفكر قيمته، ويضطر الناس إلى البحث عن فكر آخر.. إذا كان الجمود كذلك، فإنَّ التجدُّد لا يكون في البحث عن نظم جديدة في الاعتقاد والفكر والمناهج والمرجعيات، ومن ثَمّ التخلص من النظم الأصلية القديمة، وإنما يكون الحق في الموازنة والاعتدال، بين التمسك بأصول الدين ومبادئه وثوابته، وقواعد الفكر ومناهجه من جهة، والتجدد في تطوير الفهم في ضوء المعارف الجديدة، وتنظيم التفكير في ضوء المناهج الجديدة،، وتنظيم الفكر في ضوء المسائل الجديدة، واستعمال الوسائل المتجددة الأكثر نفاذاً إلى نفوس الناس وعقولهم،، وإقامة الصلة بمستجدات الواقع وتحدياته...

صور التجدد والانفتاح في الفكر محمودة منشودة، ويميل الناس إلى ادعائها، حتى لو لم تكن موجودة فيهم، والحديث عنها سهل ميسور، وهو أسهل من الحديث عن صور الجمود والانغلاق التي يميل الناس إلى ذمها والتبرؤ منها، رغم أنهم قد يكونون واقعين فيها. وعندما يتجادل طرفان أو يتحاوران حول مسألة من المسائل تظهر صور الجمود عند أحد الطرفين أو عند كليهما. فمن الجمود مثلاً أن لا يتفكر المرء بموقف الطرف الآخر في الخلاف أو الحوار، وأن لا يرى أحد الأطراف أنَّ ثمّة وجهاً آخر لفهم المسألة غير فهمه هو، وربما يكون هذا الفهم الآخر وجهاً مقبولاً، وربما يكون صورة أخرى لما يراه هو. وقد يكون سوء ظن طرف بالطرف الآخر ليس له ما يسوغه. وقد يكون الجمود والثبات على الموقف ناتجاً عن عدم الثقة بالنفس، والخوف من تبعات تغيير الرأي، أو تغيير الموقف، أو الاعتراف بالخطأ، في حين يكون التجدد تعبيراً عن موقف قوة وثقة بالنفس.

وعلى كل حال فالتجدد أمر نسبي، وليس صفة مطلقة، فهو نسبة إلى المستوى الذي يطلبه الإسلام، أو نسبة إلى ما يتوافر من إمكانات التعلم والتجدد، أو نسبة إلى ما يتوفر من انفتاح وتجدد عن الآخرين. وفي المقابل فإنَّ الثبات على ما

صح من أفكار ومبادئ صفة مطلوبة لا تتناقض مع اتجاه التجدد مع الثبات على المبادئ والكليات والمرجعيات العامة. ولعلَّ الحقّ أن يكون في الاحتفاظ بالتوازن بين الثبات على الأفكار المبدئية من جهة، والتجدد في مسوغات هذا الثبات، وضرورته، وتجديد فهمه، والتعبير عنه، من جهة أخرى.

والذي يعنينا في هذا المقام أمران: الأول أنَّ الجمود والتجدد في البناء الفكري هي حالة في الإنسان الفرد أو الفئة من الناس أو المجتمع بأكمله، وهذه الحالة لا تتّصف بالثبات والديمومة، وإنَّما هي حالة نموٍّ متواصل في مقدار هذا البناء، وحالة تغيُّر متجدد في نوعيَّته.

والأمر الثاني أن تلك الحالة للصورة الذهنية عند الإنسان تنتقل إلى الصورة التي يضعها الإنسان عن فهمه لعناصر الفكر وبنيته وعلاقاته. فبعض العلماء يتصورون مجمل المعرفة البشرية في حقل من حقولها، جسماً ينمو نحو الخارج، فتتكون طبقات من المعرفة المتجددة تتراكم فوق بعضها بعضاً مع مرور الوقت، وتطور الخبرات، وتوالي الاكتشاف، وهكذا ينمو العلم. لكنَّ علماء آخرين قالوا: إن المعرفة في حقل من الحقول لا تتراكم، ويضاف بعضها إلى بعضها الآخر في صورة طبقات متراكبة، وإنما هي شبكة من العلاقات ونقاط الاتصال نعرف شيئاً منها ونجهل أشياء أخرى، فإذا علمنا شيئاً مما كنا نجهله، فإنَّ المعرفة الجديدة تدخل في الموقع الذي كان مجهولاً، وقد تكون الصورة الكلية الجديدة مختلفة إلى حد كبير عن الصورة السابقة، فالنموُّ في المعرفة هو تغيير في طريقة الفهم والرؤية الكلية يتم في مراحل زمنية متتابعة يسود في كل منها نموذج فكري عام (paradigm).

هل من الضروري أن نتخيل أن علم التفسير عندما يكتبه مفسر في هذا العام (١٤٣٥هـ/٢٠١٤م)، صورةً محدثة عما كتبه الطبري (ت٣١٠هـ)، والزمخشري (ت٥٣٨هـ)، والرازي (ت ٦٠٦هـ)، والقرطبي (ت٦٧١هـ)، وابن كثير (ت٧٧٤هـ) ... ومن جاء بعدهم؟ هل نتخيل أن التفسير الحديث

سيضيف إلى ما كتب في التفاسير القديمة؟ أم أنَّ التفسير الحديث يمكن أن يكون صورة مختلفة عن تلك التفاسير القديمة، سواءً في استلهام دلالات النص ومقاصده، أو في توظيف المعرفة المعاصرة في علوم الطبيعة والعلوم الاجتماعية والنفسية والتربوية في فهم تلك الدلالات والمقاصد؟ وإذا كانت الصورة الجديدة للتفسير نوعاً من التجديد، فهل يعني ذلك تجاوز الأصول الثابتة والقواعد المعتبرة في التفسير من قواعد اللغة، أو الأحاديث النبوية المروية في التفسير، أو السياق العام الذي تقع الآية فيه، أو ما ورد من آثار في أسباب النزول، أو غير ذلك؟

والخلاصة، أن صفة الجمود والانغلاق الفكري صفة مذمومة في حق الفرد أو الجماعة أو الأمة، وأن التمسك بقواعد الاعتقاد، ومقتضيات الانتماء إلى الدين والأمة لا تمثل عذراً لمن يريد أن يسجن نفسه في صور من الفهم التاريخي الذي لم يعد يصلح للواقع المعاصر. وأن صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، تفتح المجال واسعاً للاجتهاد في فهم قواعده ومبادئه وأحكامه وتنزيلها على الواقع المتغير بتغير الزمان والمكان، ومن ثَمّ فإنّ الاجتهاد يعني في الغالب الاختلاف والتنوع، ضمن المرجعية التوحيدية الشاملة، وأن هذا الاختلاف والتنوع سوف يتجدد مع تجدد الخبرات والتجارب.

لذلك، فإن على من يأمُل في اكتساب بناء فكري محدد أن يُبقي المجال مفتوحاً للنمو والتجدد، وأن يختبر اليوم ما كان عليه بالأمس، وينظر إلى بنائه الفكري، ليلتمس ما أضافه إليه من جديد، وما أجرى عليه من تطوير، نتيجة لما سمعه أو قرأه أو مر به من خبرات وتجارب. وربما يحسن أن يكون هذا الاختبار جزءاً من ورد المحاسبة الذي يقوم به المؤمن كل يوم، قبل أن يأوي إلى فراش نومه. وربما يحسن أن يكون هذا الاختبار بصورة دورية كل أسبوع أو كل شهر أو سنة. وربما يحسن أن يتضمن الاختبار مقدار الفكر الجديد الذي اكتسبه، ونوع الفكر الذي طرأ عليه.

وإذا كانت صفة الجمود والانغلاق في البناء الفكري مذمومة، وصفة التجدد والانفتاح في هذا البناء محمودة، في حق الأفراد وحق الجماعات والمجتمعات، فكيف يمكن أن يكون نموُّ الأفكار كماً، وتغيرها كيفاً، عند الجماعة من الناس، عنصراً من عناصر التقويم المرحلي والدوري، سواءً كانت هذه الجماعة أسرة من أسر المجتمع، أو عاملين في مؤسسة من المؤسسات أو أعضاءً في حركة من الحركات؟

ثالثاً: تسويق الأفكار

يحلو لبعض المعنيين بالفكر أن يتحدثوا عن صناعة الأفكار ونشرها، بطريقة مشابهة للحديث عن صناعة الأشياء وتسويقها. والتسويق علم له مفاهيم ومبادئ ونظريات، وله كتب أكاديمية ومهنية، وله برامج وتطبيقات في تسويق السلع والبضائع والخدمات. فلِمَ لا تستخدم مفردات السوق والتسويق على الأفكار؟ وقد انتقلت فكرة تشبيه نشر الأفكار بعملية تسويق الأشياء من خلال القيمة العلمية التي يمكن أن تبنى عليها إجراءات في التطوير والتصنيع يكون لها عائد ماديّ. ومن هنا جاءت فكرة براءات الاختراع، لتسجل حقوق صاحب الفكرة، والإفادة مما قد يظهر لها من تطبيقات عملية في سوق الأشياء أو الخدمات. ومن هنا جاءت كذلك فكرة الملكية الفكرية، وجاءت فكرة اقتصاد المعرفة... إلخ.

والذي يهمنا في هذا المقام هو التأكيد على أن قيمة ما يمتلكه الفرد من أفكار لا تظهر ما دامت حبيسة لدى صاحبها، وإنما تظهر قيمة الأفكار عندما تنتشر وتشيع، وتصبح عنصراً مهماً في ثقافة المجتمع، أو رأياً عاماً في السياسة، أو ممارسة معينة في الاستهلاك ...إلخ. وعلى كل حال فإن مصطلح تسويق الأفكار في بعض المراجع التي استخدمته عنواناً لها ليس بعيداً في دلالته عن مصطلحات عديدة أخرى، مثل التربية والتنشئة والنشر، والاتصال والدعاية وغسيل الأدمغة، وبرمجة العقول، والغزو الفكري، ... إلخ. المهم أن مصطلح تسويق الأفكار يؤكد على القيمة العملية والفائدة المرجوة من الأفكار المراد نشرها أو تسويقها.

إنَّ الفكر صفة للإنسان، فكل الناس يفكرون ويكوِّنون أفكاراً، وهذه الأفكار هي التي تصنع السلوك الشخصي للفرد، وتؤثر في أفكار الآخرين وسلوكهم ومشاعرهم. فالأحداث التي تقع في الزمان والمكان إنما هي نتائج وتمثلات للأفكار المؤثرة. لكن الأفكار البشرية ليست في مستوى واحد، بل تختلف في مستوى الأهمية، والوضوح، والعمق، والجدّة... وهناك أفكار بسيطة ترد على الخاطر أو يأخذها الإنسان عن الآخرين بحكم ما اعْتاده وألِفَهُ من أنماط الحياة، ولا يشعر الإنسان بالحاجة إلى الحديث عنها أو نشرها. وهناك أفكار إبداعية مبتكرة، يصل إليها الإنسان من خلال بذل الجهد والمعاناة، وقد تكون ذات قيمة كبيرة إذا استثمرت في مجالها المناسب.

إنّ العلوم والنظم المعرفية التي دونت في أوعية المعرفة من كتب ومجلات وغيرها، هي في الأساس أفكار خضعت لقدر من التنظيم والتمحيص والتجريب. وإن تطور المنشآت والصناعات والاختراعات بما في ذلك وسائل النقل والاتصال، هي تطبيقات للأفكار، وإن الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي كذلك تطبيقات للأفكار. كل ذلك يبدأ من فكرة ترد في خاطر فرد، ثم ينقلها إلى آخرين، وربما يدور حولها التفاكر؛ جدلاً وحواراً، ومراجعة واختباراً، حتى تصبح قرارات يتم تنفيذها.

وهل عمليات التعليم والتدريس إلا نقلُ أفكار؟!

وهل ما يدور في أجهزة الإعلام المرئي، والمسموع، والمقروء، إلا محاولات لنشر أفكار صحيحة أو سقيمة؟!

obeikan.com

أليست الجهود التي يبذلها المصلحون والدعاة من أجل تغيير الواقع، وحل مشكلاته هي في الأساس مبادرات فكرية؟!

بم يملك القادة في أي قطاع من فعاليات المجتمع قدرتهم على القيادة التي يؤثرون بها في عقول الناس وقلوبهم، إن لم يكن ذلك بما يطورونه من أفكار، وما يقومون به من أفعال على أساس هذه الأفكار؟!

كيف تعرف أنك تملك أفكاراً عظيمة إذا لم تتحدث هذه الأفكار عن نفسها بفعلك وسلوكك؟ وإذا لم تتحدث أنت عنها بلسانك وقلمك؟

هذه التساؤلات تقود إلى حقيقة لا خلاف عليها، وهي أن قيمة الأفكار -أيّاً كانت قيمتها- إنما تكون في انتقالها من المنشئ إلى المتلقي، وفي حركتها في اتجاه الفعل والتأثير.

ومن حق صاحب الفكرة أن تنسب إليه، ولهذا جاءت نظم توثيق الأفكار والتنويه بأصحابها، بالتفصيل المناسب. وبعض الأفكار يكون لها قيمة كبيرة في تطبيقات عملية. ومن هنا جاءت حقول الملكية الفردية، ذات الصفة المعنوية التي تختص بنسبة الأفكار، أو الإذن بالنشر، أو الصفة المادية التي تقدر بالمال.

ولتفعيل الفكرة وتوظيفها في الواقع، جاءت أهمية البيان، والبلاغ، والدعوة، والتعليم... ومضمون ذلك كله رسالة يراد توصيلها لهدف محدد، في وقت مناسب، وبصورة ملائمة، وللجهة المقصودة.

ويتم تسويق الأفكار بوسائل وأساليب متعددة، فمؤسسات التعليم المدرسي والجامعي هي مؤسسات لنقل الأفكار، تنطوي على مناهج التعليم، من المعلمين إلى الطلبة. والكتب التي تتضمنها هذه العلوم إنما هي الأفكار التي تمت صياغتها في نظم معرفية وعلوم محددة. ودور النشر التي تنشر الكتب والمجلات، إنما هي وسائط للتجارة بالأفكار التي تتضمنها الكتب والدوريات.

وأجهزة الإعلام المرئي والمسموع والمقروء هي كذلك وسائط لنشر الأفكار. ومراكز التدريب هي مؤسسات يتم فيها تنظيم الأفكار، في حقائب تدريبية تتضمن مادة للقراءة والمناقشة وتمرينات للممارسة، فالتدريب في الغالب يهدف إلى تمكين المتدرب من الاطلاع على أفكار جديدة، سواءً كانت هذه الأفكار معلومات ذهنية، أو كانت الأساس المعرفي (الفكري) لمهارات عملية، أو لاتجاهات نفسية.

ويجدر بنا أن لا ندع الحديث عن تسويق الأفكار دون التنويه بكتاب على قدر من الأهمية، سمّاه مؤلفه "سوِّق أفكارك: تسويق الأفكار جولة في العلوم." وربما نجح المؤلف في "تسويق" مجموعة من الأفكار التي تهدف إلى التوعية الفكرية في مسائل يصعب الحديث عنها في سياقات مباشرة، وقد استخدم المؤلف مداخل عدّة في معالجة موضوعات الكتاب، بدأها بمدخل شرعي إسلامي، ثم أتبعه بمداخل التسويق، وعلم النفس، والإعلام، والسياسة، والاقتصاد، والقانون، وانتهى بالنموذج النبوي، حيث أوضح كيف كانت سيرة محمد ﷺ نموذجاً كاملاً في تسويق أفكار الدعوة الإسلامية ومفاهيم الدين. والكتاب في مجمله إسقاط لمفاهيم ومصطلحات علوم التسويق على قضايا البناء الفكري، والغزو الفكري، والصراع الفكري، مع أمثلة مختارة عن دور القوى اليهودية والأمريكية في صناعة الأفكار وتشويه الأفكار، وغسيل الأدمغة، وبرمجة العقول.[١]

رابعاً: حاجة الأمة إلى القيادة العلمية والفكرية

إنّ العلوم كلُّها هي نتاج الإدراك والفكر البشري، سواءً كان مصدرها الوحي الإلهي والهدي النبوي، أو كان مصدرها العالَم المادي الطبيعي أو العالَم الاجتماعي أو العالَم النفسي. وسواءً حصل هذا العلم للإنسان بتعامله المباشر

---

(١) باهمام، عبد الله بن سالم. **سوِّق أفكارك: تسويق الأفكار – جولة بين العلوم**. الرياض: نشر شخصي وإلكتروني، ١٤٣٠هـ.

obeikan.com

أو غير المباشر مع النصوص والأشياء والأحداث والظواهر، أو عن طريق النظر والتفكر العقلي، أو المشاهدة الحسية والتجربة العملية.

لذلك فإنّ العلوم -عند الإنسان- كلها هي فكر إنساني. لكن هذا الفكر حصل على قدر من التنظيم، والتدقيق، والتحرير، والاختبار، إلى الحد الذي أوصله إلى القدر المناسب من القبول عند الجماعات العلمية المتخصصة في كل علم، نظراً لأنَّ هذه الجماعات/ القيادات العلمية هي المرجعية في تحديد ما يدخل في العلم وما لا يدخل فيه.

أما الفكر فنقصد به في مقامنا هذا نوعاً من الإدراك والفهم الذي ينطلق من قدرة الإنسان على استيعاب العلم وتجاوزه؛ أي الخروج من تفاصيله الجزئية إلى رؤيته الكلية، التي تتيح للإنسان معرفة حدود العلم وإمكانات توظيفه؛ وما الأغراض التي يوظف من أجلها؟ وكيف يوظف؟ ومن يوظفه؟ إلخ. وينظر الفكر في خارج حدود العلم ليستشرف الآفاق التي يلزم أن يتسع إليها هذا العلم، وربما يطرح أسئلة جديدة، تقتضي -من جمله ما تقتضيه- نقد العلم، والكشف عن قصوره، وإضافة الجديد في مفرداته، من أجل الإجابة عن تلك الأسئلة. وهذا يخرجنا من موضوع العلم ويدخلنا في منهج العلم، فإذا كان العلم يتحدد بموضوعه ومنهجه، فالفكر أقرب إلى المنهج منه إلى الموضوع.

١- القيادة الفكرية للأمة

الأمة الإسلامية حاملة الرسالة الإلهية الخاتمة، ووريثة القيادة النبوية الراشدة، ومصادر هذه الرسالة محفوظة لم يطرأ عليها التحريف والتبديل، والله سبحانه قد كلّف هذه الأمة أن تتسَنَّم مهمة القيادة الفكرية للأمم الأخرى، فكانت بأمر الله في موقع الشهادة على الناس، تقدّم لهم الهداية وتكون لهم أسوة وقدوة في اتباع الهدى وبذله وتعليمه. وقد أدت الأمة هذه المهمة بكفاءة لم تقدمها من قبل أمة أخرى من أتباع الأنبياء السابقين، فأقامت مجتمع الهدى والخير والعدل، وكانت قبلة العلم والتقدم، يأتي إلى مؤسساتها ومعاهدها الراغبون في التعلم

فينهلوا منها العلم في مجالاته المختلفة، والقيم في مستوياتها المتعددة، وأنماط السلوك الحضاري في صور الإدارة والتنظيم وأصول التعامل الاجتماعي.

٢- قيادات فكرية متخصصة:

وقد تميزت من داخل الأمة المسلمة قيادات متخصصة في كل مجال من مجالات القيادة، كان أبرزها مجال العلوم والمعارف والأفكار. ففي وقت مبكر ظهر الحرص على حفظ تراث النبوة، وذلك بتدوين الحديث النبوي الشريف، والسيرة النبوية، ونبغت في ذلك قيادات من الحفاظ والرواة والمدونين والمحققين والمدققين، وتشكلت من ذلك علوم لم تعرفها الأمم السابقة منها علوم الرواية والدراية ومصطلح الحديث، والجرح والتعديل، والعلل. ودوِّنت هذه العلوم، وأصبحت كتبها أصولاً ومراجع ومصادر، لكل ما جاء بعدها من تطور ونبوغ.

وأصبح علماء الحديث قيادة فكرية لمدرسة من مدارس الفكر الإسلامي، تميز فيها علماء كبار. وقد عَرَف القرنُ الهجري الثاني بدايةَ التدوين الرسمي، ولعلّ أولّ الرواة المدونين محمد بن مسلم الزهري، ثم شيخ الحرم ابن جريج، ومحمد ابن إسحاق، ومالك بن أنس، وحماد بن زيد، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن عمر الأوزاعي. وما أن حلّ القرنُ الثالث الهجري حتى انتشر التدوين وفق مبادئ معلومة في التوثيق والتصنيف، فصنف الإمام أحمد بن حنبل مسنده، وصنف اسحق بن راهويه مسنداً آخر، ثم كُتب صحيحُ البخاري وصحيحُ مسلم، وسنن الترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وأبي دواد.

ومثل ذلك يقال عن قيادات فكرية أخرى تميزت في أبواب تصنيف الأحكام الفقهية الشرعية، وضمن مناهج محددة، فعرفت المدرسة الفقهية قيادات فذة في علوم الفقه منها أئمة المذاهب الأربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، التي يتبعها مئات الملايين من المسلمين حتى هذا اليوم.

والأمر نفسه يقال حول مدارس التفسير، والعقيدة، والكلام، والتصوف، وغير ذلك من المجالات التي عُرف في كل منها قيادات فكرية، وقد توزعت طوائف الأمة على هذه المدارس.

ولم يقتصر تشكل القيادات الفكرية على العلوم الدينية المشار إليها، بل ظهرت كذلك قيادات في علوم الطب، والفلك والبصريات والكيمياء والفلاحة، وغير ذلك. وممن عُرف في الطب مثلاً زينب طبيبة بني أوْد، والشيخ الرئيس ابن سينا صاحب كتاب القانون في الطب، وأبو بكر الرازي صاحب كتاب الحاوي في الطب، وأبو القاسم الزهراوي صاحب كتاب علم الجراحة المسمى التصريف لمن عجز عن التأليف، وغير ذلك كثير. وفي كل علم من العلوم الطبيعية الأخرى قائمة طويلة من أسماء القيادات العلمية، لا يسمح المجال بالتوسع في ذكرها.

٣- المؤسسات والقيادة الفكرية

وكان المسجد في بداية الأمر هو المؤسسة التي تنمو فيها كفاءات العلماء وخبراتهم، واتسعت مهام المسجد ليكون أشبه بالجامعات المعاصرة، فكان جامع الزيتونة في تونس، الذي يَعُدُّه المؤرخون أول جامعة في العالم الإسلامي من حيث تاريخ إنشائها، حيث بدأ العمل في بنائه عام (٧٩هـ - ٧١٦م)، وبُني من بداية الأمر، ليكون معهداً علمياً إضافة إلى كونه مكاناً للعبادة، وجامع القرويين في فاس الذي بدأ العمل في بنائه عام (٢٤٥هـ - ٨٥٩م) ويُعَدُّ أول جامعة في العالم تمنح شهادات عالية في علوم متخصصة، والجامع الأزهر في مصر الذي بدأ العمل في بنائه عام (٣٥٩هـ - ٩٧٠م)، ويُعَدُّ أقدم جامعة في العالم استمرت في تقديم العلوم حتى الآن دون انقطاع. ومع ذلك فقد أنشأ المجتمع الإسلامي مؤسسات تعليمية متخصصة للتدريب والتبحر في مجالات العلوم المتخصصة، منها المراصد الفلكية، والمشافي الطبية أو البيمارستانيات، والمكتبات العامة، لتخزين الكتب ونسخها وترجمتها، مثل بيت الحكمة في بغداد، ودار الحكمة في القاهرة.

٤- النخب الفكرية أساس نهضة أوروبا

لقد عرفت أوروبا ما وصل إليه التقدم في العالم الإسلامي منذ القرن السابع، لا سيما عن طريق الوفود الدبلوماسية التي كان ملوك أوروبا يرسلونها إلى بلاط الخلفاء المسلمين، وعن طريق الاتصال المباشر في الأندلس وصقلية، ثم في فترة الحروب الصليبية، فأخذوا الملوك الأوروبيون يرسلون وفوداً من المتعلمين لنقل الخبرة والثقافة والعلم، وأخذت طلائع الثقافة والعلم والفكر في أوروبا بالاطلاع على علوم المسلمين وأنماط حضارتهم، وحتى على قراءة المسلمين للفكر اليوناني القديم، فبدأت تتشكل في أوروبا اعتباراً من القرن الثاني عشر الميلادي قيادات فكرية في مجالات العلوم المختلفة، وبدأت هذه القيادات تشكل نخباً ومدارس فكرية ومؤسسات تعليمية حفلت بالراغبين في نقل حالة شعوبهم من التخلف الذي كان يسود أوروبا في جميع المجالات. وقد أسهم كل ذلك في النهوض والتقدم الأوروبي، وأخذت أوروبا في استخدام العلم والصناعة لبناء قوى عسكرية امتدت لاكتشاف العالم الجديد في أمريكا الشمالية والجنوبية، ثم احتلت القارة الهندية، ثم استعمرت معظم أنحاء العالم. ثم جاء القرن العشرون لتواصل أوروبا وامتداداتها في أمريكا الشمالية تقدّمها في حضارة جديدة غير مسبوقة.

٥- الإبداع الفردي أساس القيادة الفكرية

لقد كان كل عالم من هؤلاء العلماء في التخصصات المختلفة يمثل في زمانه ومكانه قيادة فكرية، وكان أهل الاختصاص في كل علم يمثلون نخباً من القيادات الفكرية في كل تخصص، ومع ما للجماعة والمؤسسة والمجتمع بأكمله من دور في تحديد موقع الفكر في قيادة المجتمع، فإننا لا نستطيع تجاهل دور الفرد في الإبداع العلمي والفكري.

الفكر وفق هذا التحليل المبين أعلاه أقرب إلى الرؤى الإبداعية، التجديدية،

أو الثورية، التي يصوغها المفكر الفرد في الأساس،[1] سواءً كان ذلك اجتهاداً فردياً منه، أو صياغةً لنتيجة الحوار والنقاش والبحث مع آخرين. وربما تتوالى الأفكار في حقل علمي محدد، وتصبح هوامشَ على حدود ذلك الحقل العلمي، ما تلبث أن تصبح جزءاً من بنية العلم، عندما تقبلها الجماعة العلمية المتخصصة، وتعتمدها عنصراً أساسياً في تلك البنية. فمنهج العلم هنا ولّد أفكاراً أصبحت فيما بعد جزءاً من موضوع العلم. ومع ذلك يبقى المجال مفتوحاً لحركة النمو والتطوير والمراجعة في كل علم، كلما أعمل عالِمٌ فكرَه، وولدّ الجديد من الفكر العلمي في تخصصه.

لكن الإنجاز في الفكر البشري لا يقتصر على مجال واحد من مجالات العلوم المتخصصة المعروفة (intra-disciplinary)، فقد يختص موضوع الفكر بمسألة تقع فيما بين تخصصين أو أكثر، وتسمى موضوعات بَيْنِيَّة التخصص (interdisciplinary)، أو عندما يُعرض موضوعٌ في علم محدد من وجهة نظر عالِم متخصص في علم آخر، تكون الرؤية إلى الموضوع رؤيةً

(١) ألا ترى أن جوائز الإبداع والاختراع العلمي تُعطى للفرد أو لعدد قليل من الأفراد! فقد أعطيت جائزة نوبل في الكيمياء مثلاً منذ البدء في منحها ١٩٠١حتى هذا العام ٢٠١٢م أي في مدة ١١٢ سنة على الوجه الآتي: ٦٣ مرة لعالم منفرد، و٢٣ مرة لاثنين من العلماء، وفي ١٨ مرة لثلاثة علماء، وحجبت في ٨ مرات. وحتى في الحالات التي كانت تُعطى لاثنين أو ثلاثة، فإنّ الجائزة لم تكن بالضرورة لعمل مشترك بينهم، وإنَّما لاستحقاق كل عالم للجائزة، فتقسم الجائزة على المستحقين. انظر ملحق جائزة نوبل في الكيمياء في الرابط:

- http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%84%D8%AD%D9%82:%D8%AC%D8%A7%D8%A6%D8%B2%D8%A9_%D9%86%D9%88%D8%A8%D9%84_%D9%81%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D9%83%D9%8A%D9%85%D9%8A%D8%A7%D8%A1

- أما في الآداب فقد منحت الجائزة في ١٠١ مرة لفائز منفرد، و٤ مرات لفائزين اثنين، وحجبت الجائزة في سبع مرات. انظر الرابط:

- http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%84%D8%AD%D9%82:%D8%AC%D8%A7%D8%A6%D8%B2%D8%A9_%D9%86%D9%88%D8%A8%D9%84_%D9%81%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AF%D8%A8

obeikan.com

عابرة للتخصصات (cross–disciplinary). وقد يلزم للإبداع في موضوع محدد اشتراك عالمين أو أكثر للعمل معاً، كل في تخصصه، ويكون الموضوع عندها متعدد التخصصات (multi–disciplinary)، وأخيراً ثمة موضوعات تحتاج إلى توحيد الإطار المرجعي الفكري فيها خارج الأطر التقليدية للتخصصات، وتقع هذه الموضوعات عندها فيما يعد موضوعات ما وراء التخصص (trans–disciplinary).

وفي كثير من الحالات لا يصنف الإبداع الفكري في مجال علمي متخصص، وإنما يصنف في مجال من مجالا الفنون.

وإذا كان العلم يهتم بالموضوع من حيث هو، وينشغل في بيان عناصره وجزئياته، وتنظيم ما يتوافر عنه من معلومات ومعارف تفصيلية، فإن اهتمام الفكر ينصب على علاقة الموضوع بالواقع وسبل معالجة الموضوع من أجل تحسين الواقع. وإذا كان العلماء يقدمون المعرفة المتخصصة حول موضوع المشكلة القائمة في الواقع، فإن المفكرين أقرب إلى تصور الحلول الممكنة لإصلاح ذلك الواقع، فهم أقرب إلى تحديد مشكلات الواقع أو توقع حصول هذه المشكلات وتحديد المعرفة اللازمة لمعالجتها حين تقع، أو تجنب الوقوع فيها. لذلك فإن القيادات الفكرية على غاية الأهمية. ولا سيما في فترات التحول التي تمر بها المجتمعات الإنسانية.

٦- الجامعة في موقع القيادة الفكرية للمجتمع

حصل تطور كبير على مفهوم الجامعة ومهمتها في المجتمع الإنساني، عبر التاريخ. واستقر وضعها الآن على أنها مؤسسة مهمة من مؤسسات المجتمع الحديث، تقوم بثلاث مهمات أساسية هي التعليم، والبحث العلمي، وخدمة المجتمع. وهي في موقع القيادة في هذه المهمات الثلاث.

ففي التعليم استقر النظام الجامعي على تَمْييز مجالات المعرفة الإنسانية في كليات وأقسام، ويختار الطالب أو يُختار له التخصص في مجال محدد ليتعلم

obeikan.com

فيه مجمل المعرفة العلمية في ذلك التخصص، ليكون مؤهلاً لممارسة مهنة محددة يخدم بها المجتمع، عندما يكمل المستوى الأول من التعليم، فيما تتطلبه الدرجة الجامعية الأولى (الإجازة، أو البكالوريوس أو الليسانس). وإذا أراد مواصلة التعليم فعليه أن يختار فرعاً من فروع تخصصه، ويتعلم أصول البحث فيه، ويتدرب على البحث في مسألة محددة من مسائل ذلك الفرع، وينجز بحثاً حول تلك المسألة. وبذلك يكون قد استكمل متطلبات الدرجة الجامعية الثانية (الماجستير). ويكون بذلك أقدر على ممارسة مهنته وتحديد مشكلاتها، وربما يتسنم بعض مسؤوليات القيادة في مسائل تلك المهنة. وإذا أراد أن يواصل التعليم، في تخصصه، فعليه أن يدخل في جزئيات موضوع التخصص، ويتبحر في معرفة ما قادت إليه المعرفة الإنسانية في ذلك الموضوع، ويقف على حدود تلك المعرفة، ويتمكن من تقويمها ونقدها ومعرفة مشكلاتها، والأسئلة التي لم يتم تقديم إجابات عليها، والآفاق المجهولة فيها، ومن ثم يختار مشكلة أو سؤالاً ويصوغ خطة بحثية أساسية لحل تلك المشكلة أو الإجابة عن ذلك السؤال. وتكون نتائج بحثه قفزة على حدود العلم، وإضافة حقيقية إليه. وعندها لا تكون خدمته لتطبيقات المعرفة المتخصصة في مهنة محددة مقصورة على مجتمعه المحلي، وإنما هي خدمة للمعرفة الإنسانية ربما تخدم البشرية كلها، وبذلك تستكمل متطلبات التعليم الجامعي للحصول على الدرجة الجامعية الثالثة (الدكتوراه).

ففي مجال التعليم أصبحت الجامعة في موقع القيادة في تأهيل الكوادر التي تخدم المجتمع في مجالات التخصص العلمي والعملي، وترقية هذه الكوادر، ورفع كفاءتها.

هذا عن وظيفة الجامعة في التعليم، أما وظيفة الجامعة في مجال البحث العلمي، فإن ذلك لا يتوقف على ما يقوم به طلبة الدراسات العليا من البحوث الموجهة إلى حل المشكلات وتطوير الأداء، وإنما يمتد إلى البحوث التي يقوم بها أعضاء هيئة التدريس في الجامعة، التي يفترض أنها تخدم حركة البحث

العلمي في مجالات التخصص المختلفة، ويتم الحكم على قيمة هذه البحوث وتقويم صلاحيتها للقبول والنشر في المجلات المتخصصة بالبحث، عن طريق شخصيات تمتلك من السلطة العلمية في مجال تخصصها ما يؤهلها لذلك الحكم. ولم يعد مقبولاً اليوم أن يكون البحث من أجل البحث، وإنما قيمة البحث هي في ما يمكن أن ينتج عنه اليوم أو غداً من تطوير للمعرفة وتوظيفها في تحسين حياة الناس في المجتمع المحلي، في مجالاتها المختلفة، أو ترقية الحياة البشرية في المجتمع الإنساني بصورة عامة.

يضاف إلى ذلك أن الجامعة تنشئ مراكز متخصصة للبحث يعمل فيها باحثون متفرغون، ويتعاونون مع الباحثين من طلبة الدراسات العليا وأعضاء هيئة التدريس في الجامعة، ومع غيرهم من الباحثين في مراكز البحوث الأخرى في المجتمع أو في العالم. وقد تكون المشاريع البحثية في هذه المراكز امتداداً لما تقوم به الشركات والمؤسسات الخدمية أو الإنتاجية، لغرض زيادة فاعلية عملها ورفع مستوى منتجاتها، أو حل المشكلات التي تواجهها، أو فتح آفاق جديدة، وغير مسبوقة، للخدمة أو الإنتاج.

ولا شكّ في أن قيام الجامعة بوظيفة البحث العلمي على الوجه المشار إليه هو مهمة قيادية جليلة، ترغب بعض الجامعات في أن تتخصص فيها، وتعرف بها أكثر مما تعرف بوظيفة التعليم. ذلك أن كثيراً من بلدان العالم أخذت في تأهيل بعض جامعاتها، لتكون جامعات بحثية تتميز عن غيرها من الجامعات التعليمية، أو على الأقل أن تجمع الصفة البحثية إلى جانب الصفة التعليمية، إن لم تتمكن من توفير متطلبات الصفة البحثية بكاملها.

أما وظيفة خدمة المجتمع، فإنَّ الجامعة لا تملك أن تقصر عملها على ما سبقت الإشارة إليه من تعليم وبحث، على ما لهما من أهمية كبيرة، فأعضاء هيئة التدريس في الجامعة، وهم نخبة النخبة في المجتمع، لا يعيشون في أبراج عاجية منفصلة عن واقع المجتمع بمشكلاته وطموحاته،

فإذا أرادت المدرسة أن تعطي نموذجاً لمستوى الطموح الذي تريد أن تفتحه لطلابها، فإنها تستضيف أستاذاً جامعياً ليحدث الطلبة عن بعض آفاق الطموح، وإذا أراد الإعلام أن يعالج قضية اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية، فإنه يستضيف أهل الاختصاص في الجامعة لمناقشة رؤاهم حول تلك القضية، وأساتذة العلوم الشرعية يمكنهم أن يقدموا شيئاً من علمهم في برامج التوجيه الديني والإعلامي والثقافي، بما في ذلك خطبة الجمعة في المساجد، وهكذا.

ثم إن أعضاء هيئة التدريس في الجامعات هم أعضاء في أسرهم وعائلاتهم وأحيائهم السكنية، فهم بذلك في مقام من يملك الحكمة في التعامل مع الآخرين، وهم أعضاء في النوادي الرياضية والاجتماعية والجمعيات التطوعية، والأحزاب السياسية. لذلك تتوجه إليهم الأنظار لتقديم ما يملكون من خبرة ودراية، في فهم الأحداث التي تطرأ، وفي التعامل الحكيم في المناسبات المختلفة، وهي مهمات قيادية قد لا يختارها الأستاذ الجامعي ولا يسعى لها، لكنّ المجتمع من حوله يتوقعها فيه ويطلبها منه.

وأخيراً، فإنَّ من بين أعضاء هيئة التدريس من يعتصر خبرته وتجربته في العمل، وفي الحياة، لتأليف كتب يقدمون فيها لعامة القراء فهمهم لموضوعات محددة، يوظفون فيه تخصصهم العلمي، أو رؤيتهم الكلية لموضوعات عامة تتقاطع فيها المعرفة التخصصية، والخبرة العملية، والبصيرة الشخصية، وتتضمن اجتهادات فكرية ربما تمثل تأصيلاً لتوجهات محددة في السياسات العامة في المجتمع، أو استشرافاً لمستقبل منشود لهذه السياسات.

إنّ صور القيادة في الوظائف الثلاث للجامعة تتجاوز الصور التقليدية من الأداء المحدد للوظيفة ومتطلباتها المألوفة، التي تصنف ضمن الإدارة والتنظيم، وإنما هي قيادة في مجالات مفتوحة الآفاق تتطلب من الجامعة، ومن الأستاذ الجامعي رؤية استشرافية، وإنتاجاً فكرياً على درجة عالية من الأهمية.

٧- رأس المال الفكري

مصطلح رأس المال الفكري دخل إلى عِلْمَيّ الاقتصاد (التنمية الاقتصادية)، والإدارة (التطوير الإداري) في الربع الأخير من القرن العشرين، وذلك حين ميّز الباحثون هذا المصطلح عن مصطلحات كانت أكثر استعمالاً، مثل رأس المال الطبيعي الذي يختص بالموارد، ورأس المال المادي الذي يهتم بالنقد والموجودات الثابتة، ورأس المال الاجتماعي الذي يختص بالعلاقات والشبكات الاجتماعية، ورأس المال البشري الذي يهتم بالطاقات والخبرات والمهارات التي يملكها الأشخاص. ثم أصبح الجزء المهم من رأس المال البشري هو رأس المال الفكري، الذي يتمثل في نخبة من العاملين في المؤسسة الذين يمتلكون قدرات معرفية وتنظيمية، ويتمكنون بها من إنتاج أفكار جديدة، أو تطوير الأفكار القديمة بهدف اغتنام الفرص. ذلك أن العلم والعقل والمعرفة أصبحت الأساس الأكثر قيمة في القوى المتنافسة.[١]

ومع أنَّ الحديث عن الواقع الاقتصادي في البلدان المختلفة أصبح يلخص بجملة: "المعرفة هي ما نشتريه وما نبيعه وما نفعله،"[٢] فإن "المعرفة عن رأس المال المعرفي لم تصل إلى أكثر من نصف مرحلة النضج، إنها لا تزال تبدو شيئاً مضحكاً، فهل برامج إدارة المعرفة هي عوامل مؤكدة لصناعة المال؟ كيف يمكن أن نقيس رأس المال الفكري بطريقة تتصف بالثبات؟ لماذا يسهل انتقال المعرفة في بعض البيئات، بينما تكون المعرفة محتكرة في بيئات أخرى؟ وما أحسن رابط بين التدريب وتحسين الأداء؟ ما التقنيات الأكثر فاعلية؟ والقائمة طويلة مثل قائمة القضايا التي ترد عن الفن."[٣]

---

(١) المفرجي، عادل حرحوش. وصالح، أحمد علي. **رأس المال الفكري، طرق قياسه وأساليب المحافظة عليه**. القاهرة: المنظمة العربية للتنمية الإدارية، ٢٠٠٣، ص ٨-١٨.

(2) Stewart, Thomas A. *The Wealth of Knowledge: Intellectual Capital of Knowledge and the Twenty-First Century Organization*, London: Crown Business, 2002, p.5.

(3) Ibid., pp. 328-329.

openkam.com

ومع أن مصطلح "رأس المال الفكري" لا يزال يستخدم في دوائر الشركات الكبرى والبنوك للتعبير عن الأفكار التي يحملها مديرو هذه المؤسسات وأقسام التطوير فيها، فإنَّ المصطلح ربما يكون مغرياً، للدلالة عن ما يميز المؤسسات في أي مجتمع من الأفكار الإبداعية المتجددة. وسوف نجتهد في استعمال المصطلح للدلالة على ما تملكه أية أمة من رصيد فكري تتميز به عن غيرها، وتكون قادرة على بناء موقع متقدم بين الأمم، وقادرة على عرض هذه الأفكار بالصورة التي تسوغ للآخرين الاعتراف بهذا الموقع وتقديره.

وإذا كان رأس المال الفكري هو الذي يفسخ المجال لشركة، أو مجتمع، أو أمة، أن تتقدم وتتفوق، فإنَّ من المهم أن يكون رأس المال هذا عنصراً متجدداً يوفر استمرار التقدم والتفوق، أما إذا نضب معينُه، وتعطلت قدرتُه على التجديد والإبداع، فلن يستمر ذلك التقدم والتفوق. وإذا جاز لنا أن ننقل المصطلح لنصف ما يمكن أن تمتلكه الأمة الإسلامية وتتميّز به، فإننا نتساءل هل تملك الأمة الإسلامية رأس مال فكري يجعلها غنية فكرياً ومن ثم ثقافياً وحضارياً، ويضعها في موقع التقدم والتفوق، ويوفر لها ضمان الاستمرار في هذا الموقع؟!

وفي الإجابة عن هذا التساؤل نجتهد في أن نقول: إنَّ الأمة الإسلامية حين أراد الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس، والأمةَ الوسطَ التي تملك الشهادة على الناس، حمّلها الله سبحانه آخِرَ كتبه، وتعهَّد بحفظه من التغيير والنسيان إلى آخر الزمان على هذه الأرض، وجعَلَهُ ضمانَ هدايتها إلى الخير والرشد والصلاح، وضمانَ تفوق المؤمنين به والمهتدين بهديه، وسبب عُلُوِّهم بقيم الحق والخير والعدل. ثم جاءت السنة النبوية الشريفة تنزيلاً حكيماً لتلك القيم على الواقع، ثم جاءت العلوم المختلفة التي بنيت على خدمة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، لتجدد سبل الرشد والهداية مع تغيرات الزمان والمكان. وليبقى القرآن والسنة معيناً مستمراً، ومصدراً متجدد العطاء، لتحقيق التفوق والتقدم.

obeikan.com

ولقد تحقق التفوق والتقدم لهذه الأمة كلما اهتدت بهداية القرآن والسنة، وتخلفت عن التقدم والتفوق كلما أعرضت عن تلك الهداية. فرأس مال الأمة المتجدد العطاء هو هذا القرآن الكريم، وتطبيقاته النبوية، والعلوم الغزيرة التي دارت حولهما. لكن رأس المال الفكري هذا ليس شيئاً مضى وانقضى، وإنما هو الإطار المرجعي المهيمن الذي يدفع إلى تطوير الأفكار المتجددة، ويحفز على استمرار الإبداع والابتكار والاكتشاف، ويعلي من روح التجديد والاجتهاد في كل العلوم الأخرى: الطبيعة، والاجتماعية، والنفسية.

وما لم يكن رأس المال الفكري هذا موضع الفعل والتأثير، فلن يكون لأي شكل من أشكال رأس المال الأخرى ما يحقق للأمة تقدماً أو تفوقاً.

خاتمة:

تحدثنا في هذا الفصل عن البناء الفكري للأمة الإسلامية، الذي يشكل هويتها الفكرية، والعوامل التي تؤدي إلى تجدد الفكر أو جموده، والحاجة الدائمة إلى انتقال الفكر ونشره بالطرق المختلفة. وأبرزنا دور الفرد في الإبداع الفكري، وأهمية القيادة الفكرية في تكوين الأمة وموقع الأمة القيادي بين الأمم، وتحدثنا كذلك عما يميز المؤسسات الفكرية في أي مجتمع من الأفكار الإبداعية المتجددة، وهو الذي يمكّن المجتمع أو الأمة من امتلاك زمام المبادرة والقيادة والتقدم، وعرضنا لمصطلح "رأس المال الفكري" على مستوى المؤسسات والمجتمعات والأمم. وتساءلنا عن رأس المال الفكري الذي تملكه الأمة الإسلامية وتتمكن به أن تتسنم موقع التفوق والاستمرار في هذا الموقع.

إن الأفكار الإبداعية التي بُنِيَتْ على أساسها مدارس أو حركات فكرية ذات شأن في واقع المجتمعات العربية والإسلامية، تستحق الاحتفاء بها والتقدير لها، على ما اتصفت به القيادات الفكرية من عبقرية في البناء، لكن الجمود على تلك الأفكار الأولى لا يكون صفة إيجابية، لأن حركة الفكر ونموَّه وتطوُّرَه، واستجابتَه للأسئلة المتجددة، وللظروف المغيرة، هي التي تمده بعناصر الحياة والفاعلية.

إن قدرة المجتمع على القيادة الفكرية تظهر انعكاساً للإبداعات العلمية التي يقوم بها علماء ذلك المجتمع، من مختلف التخصصات الطبيعية والتقانية والاجتماعية والإنسانية، واللون التي تأخذه هذه العلوم من المعتقدات التي يتبناها المجتمع، ويتميز بها عن غيره من المجتمعات. ومن هنا جاء الاهتمام بالمؤسسات الحاضنة لإبداعات العلماء الذين يعملون فرادي، ويعملون مجتمعين في فرق بحثية، في جامعات أو مراكز بحثية متخصصة. وإنه لمن المؤسف حقاً أن الجامعات في البلاد العربية والإسلامية لم تثبت كفاءتها في الإنجاز العلمي والفكري، لا من حيث تميزها برؤية كونية وصبغة حضارية تعبر عن هويتها الفكرية، ولا بنظم الإدارة والتسيير المعتمدة فيه، ولا من حيث الدعم الذي يوفرها لها المجتمع.

obeikan.com